﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ [فصلت: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من وصف إعراض الكافرين إلى ذِكرِ أقوالهم في الصُّدود

لمّا أخبرتِ الآيات السّابقة عن إعراض الكُفّار عن القرآن الكريم وعدم سماعهم له؛ ناسب زيادة بيان حالهم بأقوالهم الَّتي صدرت عنهم، فكَشَفَ النِّقاب في هذه الآيةِ عن مدى نُفرتهم ومُباعدتهم، فأخبر تعالى عنهم بالمقالة الدّالَّة على امتناع قلوبهم، فجاء تصريحهم شاهدًا على حالهم؛ إذ قالوا بلسان العناد والجحود: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾، فأظهروا بهذا القول استغراقهم في الصُّدود والإعراض[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَكِنَّةٖ﴾: جمع كِنٍّ، وهو الغطاء، يقال: كنَّ الشَّيء يكنُّه كنًّا، وكنونًا، وأكنَّه، وكننه: ستره وغطّاه[2]، وكَنَّ أمْرَه عَنْهُ كَنًّا: أخفاه، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[3]، والكنان: وقاء كلِّ شَيء وستره[4]، ومعنى أكنَّة هُنا: أغطيةٌ[5].

2) ﴿وَقۡرٞ﴾: الوَقْرُ: ثقلٌ في الأذن، تقول: وقَرَتْ أذني عن كذا تَقِرُ وقْرًا، أي: ثَقُلت عن سمْعِهِ[6]، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيء[7]، والمعنى هُنا: صَمَمٌ وثِقَلٌ يمنعنا من استماع قولك[8].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 540، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 285.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والراغب، المفردات: (كنن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كنن).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كنن).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 197، والسِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 57.
(6) الفراهيديّ، العين، والراغب، المفردات: (وقر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقر).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 197، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 540.

3) ﴿حِجَابٌ﴾: سِترٌ، وكلُّ شيءٍ مَنَعَ شَيئًا من شيءٍ، فقد حَجَبَه حَجْبًا، أي: ستره[1]، والحجب سَتْرٌ للشَّيء بحائل قويٍّ يحجز غيره عنه[2]، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ مِن الوُصولِ[3]، والحجاب ما يَستُرُ المطلوبَ، ويَمنَعُ مِن الوُصولِ إليه[4]، والمعنى هُنا: سِتْرٌ مانع يمنعنا من التَّواصل إليك[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عـوائـقُ القلوب والآذان وحواجز الجحود تجسِّد إعراض المكذِّبين عن الحقِّ

تُبيِّن الآية الكريمة ما قاله المعرضون عن القرآن؛ إذ نطقوا بحال قلوبهم بأنَّها مغلَّفة بأغطية تحجب إدراكَ القرآن، وفي آذانهم ثِقلٌ يمنعها من السَّماع، فلا يستطيعون إدراك ما يُدعون إليه، وهناك حاجزٌ يفصل بينهم وبين النَّبيِّ ﷺ، يمنعهم من رؤيته، ثم خاطبوا رسول الله ﷺ: فاعمل - يا مُحمَّد - بما تراه في دينك، فإنَّنا مُتمسِّكون بديننا الَّذي اخترناه لأنفسنا، ولن نَتَّبِعَكَ فيه[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

تفصيلُ أقوال الكافرين في الإعراض بعد وصف أحوالهم

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ هو عطفٌ على ﴿فَأَعْرَضَ﴾، أو حالٌ من ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، أو عطفٌ على ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ في الآية السابقة، أو حالٌ من الضَّمير في ﴿فَهُمْ﴾، والمعنى: أنَّهم أداروا ظهورهم مُصَرِّحينَ بعدم الاكتراث، ومتَّخذين موقفًا صارمًا بالجفاء والعداء، وهذا العطف تفصيلٌ للإعراض عمّا وُصِفَ به القُرآنُ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي شأنُها أن تُقَرِّبَهم إلى تَلَقّيه، لا أن تباعدهم عنه، وتزيدهم في

(1) الفراهيديّ، العين: باب الحاء والجيم والباء معهما: حجب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (حجب).
(2) مُحمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حجب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حجب).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 360.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 330.
(6) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 7/ 161، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 8/ 325، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 744.

الرَّفض والصُّدود، وقد جاء هذا التَّفصيل في أقوالهم الَّتي منعتها من الانتفاع بالقرآن، كلمةً كلمةً؛ إذ كانت تلك الأقوال حواجزَ وحُجبًا حالت دون أن يصلوا إلى فهْمِ معانيه والاهتداء بهديه، فالآية السّابقة حديث عن أفعالهم وهذه الآية حديث عن أقوالهم، وأنَّهم رفضوا التَّنزيل فِعْلًا وقولًا[1].

نكتةُ ذِكر القلوب قبل الآذان:

كـونُ القلوب مَحَلَّ المعرفة وسلطان البدن وموطن الإيمان والكُفْرِ

في الآية السّابقة قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، فالَّذي يظهر أنَّ ما يُناسبه البدء بذكر الآذان لا القلوب في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾، لكنَّه بدأ بذكر القلوب، فالآذان على لسان الكافرين، ونُكتة ذلك أنَّ القلوب مَحَلُّ المعرفة وسلطان البدن، والسَّمعُ والبصر هما الآلتان المُعينتان لتحصيل المعارف، والسَّماع كناية عن الاستجابة - كما سبق - فبدأ القول بذكر العِلَّة ثُمَّ نتيجتها[2]، ويُلفتنا ابتداؤهم بذكر قلوبهم، وكأنَّهم يعلمون أنَّ هذا التَّنزيل قاصدٌ إلى قلوبهم؛ لأنَّها موطن الإيمان والكُفْرِ وموطن التَّغيير وأنَّ النُّفوذ إليها هو رسالة الأنبياء والمُصلحين والمُربّين، وأنَّهم كانوا يضنّون بما فيها مِمّا كان عليه آباؤهم، ويروعون بها عن سماع كُلِّ ما يؤدّي إلى مُراجعة المكنون فيها من مألوف عاداتهم وما ترسَّخ من عقائد وعوائد[3].

بلاغةُ استعمالِ حرف الظَّرفيَّة دون حرف الاستعلاء:

تـصـويـرُ شِـدَّة الـــرَّفـــض والإعـــــراض فـي الـنُّـفـوس والـقـسـوة في القلوب

الشّائعُ في التَّعبير أنَّ الغطاء والسَّتر يكون فوق الشَّيء المكنون المستور، ولا يكون المكنون في الأكنَّة إلّا على سبيل المبالغة في تصوير السَّتر والاحتجاب، فالقلوب هنا لم تكن تحت الغطاء، بل دخلت

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 233.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 541، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 285.
(3) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 324.

فيه، واستكنَّت داخله، مِمّا يعكس شِدَّة الحَجْبِ وتَمَكُّن الغِلاف، فحرف الظَّرفيَّة ﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ جاء ليُشير إلى هذا المعنى، وليظهر شدَّة الرَّفض والمبالغة في الإعراض، فالظَّرفيَّة تُفيد استيعاب الأكنَّة القلوب؛ لأنَّ الأكنَّة لا بدَّ مِن تجاوز أطرافها على المظروف، فكأنَّهم قالوا: الأكنَّة محتوية على القلوب ساترة من جميع جوانبها، وليس هذا حاصلًا في حرف الاستعلاء؛ لأنَّ الأكنَّة حينئذٍ ساتر سطحها، فلا يلزم من هذه الاحتواء من كلِّ جانب، وإذا تأمَّلنا في هذا، نجد أنَّ القلوب لم ترفض فقط بعد السَّماع والنَّظر، بل إنَّها من البداية غُلِّفت، وغُطّيت، فلم يكن هناك سماع أو نظر، فحرف الظَّرفيَّة في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ مُستعار استعارة تصريحيَّة تبعيَّة لتَمَكُّن هذا الكِنان أو الغطاء من قلوبهم حتَّى كأنَّ قلوبهم مظروفة فيه، ففيه تشبيهٌ للأكنَّة بالظَّرف والقلوب بالمظروف وهذا من أدلِّ الأدلَّة على القَسوة العظيمة[1]، فالمقام في الآية مقام إخبار عن موقفهم من التَّنزيل، وأنَّهم قد بلغوا كُلَّ مَبْلَغٍ في رفضه وكراهيَّته، فجاء ذلك عن طريق التَّصوير لحالهم في أسلوب يتناسب مع المقام في أوفى بيان.

بلاغةُ الاستعارة في مفردة الأكنَّة:

تصويرُ حيلولةِ وصـول الدَّعـوة إلى عقولهم

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ شَبَّهَ قلوب الكفرة بالشَّيء المحويِّ المحاط بالغطاء المحيط به بحيثُ لا يصيبه شيءٌ من خارج من حيثُ نُبوُّها وتباعدها عن إدراك الحقِّ واعتقاده، ووجه الشَّبه حيلولة وصول الدَّعوة إلى عقولهم، كما يحول الغطاء والغلاف دون تناول ما تحته، وهذا على طريق الاستعارة المكنيَّة[2].

(1) الطِّيبي، حاشية على الكشّاف: 13/ 563، والعلياني، سورة فصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 383.
(2) زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 7/ 359، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 233.

وهذه الاستعارة تُبيِّن هذا الموقف المُتعنِّت العجيب، عن طريق تصوير المانع والحاجز المعنويِّ، الَّذي بينهم وبين دعوة الرَّسول ﷺ في صورة غطاء كثيف مانع، غلَّف قلوبهم، وغطّاها، فلا يصل إليها الحقُّ.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

تصويرُ الرَّفض النَّفسيِّ لقبول الدَّعوة إقامةٌ للحجَّة على المشركين

وردت آيات مُشابهة للآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: 25]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: 45 - 46]، فاستعمل في الآيتين حرف الاستعلاء، وذلك أنَّه إخبارٌ من الله تعالى بعدم نفاذ الحقِّ إلى أسماع الكافرين، وعدم إشراق نور الهداية على قلوبهم، وهذا يكفي فيه جعل الأكنَّة مُستعليةً على القلوب دالَّة على أنَّها أغطية تحول دون وصول الهداية إليها، أمّا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾؛ فقد جاءت على ألسنة المشركين، مكتسبة ثوبًا من المبالغة في رفض الاستماع، مُؤكِّدين أنَّ حرفًا واحدًا من كلام الرَّسول ﷺ لن يصل إلى آذانهم، فالقلوب مُحاطةٌ بأغطية كثيفة، بل شملتها كما يُشمل الظَّرف بالمظروف؛ إمعانًا منهم في تضخيم الموانع والحواجز، فأعلنوا أنَّهم قد أقاموا حجابًا عظيمًا يحول دون وصول صوت الرَّسول ﷺ إليهم؛ لذا كان حرف (في) هو الأنسب؛ للدَّلالة على احتواء الأكنَّة للقلوب وإحاطتها بها في هذا السّياق البلاغيِّ[1].

نُكتةُ تنكير لفظ ﴿أَكِنَّةٍ﴾:

السّياقُ أصلٌ في بيان معاني التَّنكير

معنى قوله تعالى: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾، أي: أغطية عظيمة لا ينفذها بصر ولا شيء، ولا يخرقها[2]، فالتَّنكير في لفظة ﴿أَكِنَّةٍ﴾

(1) محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجَرِّ في الذِّكر الحكيم، ص: 59 - 60، سورة فصّلت دراسة بيانية، ص: 385.

(2) أطفيش، تيسير التّفسير: 12/ 396.

يُفيد التَّعظيم؛ لأنَّ هذه الحُجُب ليست عاديَّة، أو يسيرة يمكن اختراقها، بل هي أغطية عظيمة وشديدة تمنع بشكل كامل وصول نور الهداية إلى قلوبهم، كما يرون هم في حديثهم عن أنفسِهم، فاكتسب اللَّفظ معنى التَّعظيم من السِّياق.

نوعُ (مِنْ) ودلالتها:

حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا﴾ للابتداء، أي: مُبتدئة تلك الأغشية وناشئة من الأمر الَّذي تَدْعونا إليه[1].

نكتةُ استعمال الموصول (ما):

في جُملة: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ تتجلَّى بلاغة الاحتياط في التَّعبير؛ لأنَّهم لمّا قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾؛ أفادوا أنَّهم لم يستوعبوا شيئًا، ولم يُحَصِّلوا شيئًا مِمّا يدعوهم إليه، ثُمَّ أحجموا عن تسمية الدَّعوة أو وصفها، في استعمال الموصول (ما) دون أن يُقال: (من دعوتك)، فاختاروا عبارة مُبهمة تُحيل إلى ما يدعوهم إليه دون تحديده، مُبالغين في التبرُّؤ منه، ومُظهرين رفضًا مُطلقًا له، وهذا الإبهامُ في العبارة يتماهى مع موقفهم الموغِل في الجحود؛ إذ يجمع بين نفي الإدراك التّامِّ لما يُدعون إليه، وتجنُّب الاعتراف الضِّمني بمصدر الدَّعوة، ففيه إيماءٌ إلى كبرهم في التَّغاضي عن تسمية المقصود، فهو قريبٌ من استعمال اسم الإشارة بغرض الاستهزاء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: 41].

الاستهزاءُ بالدَّعوةِ وكتابها ورسولها

براعةُ التَّعبيرِ بصيغة المُضارع ﴿تَدْعُونَآ﴾:

في التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿تَدْعُونَآ﴾ دلالةٌ على الاستمراريَّة والتَّجدُّد في الدَّعوة؛ إذ يوحي المُضارع بأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكتفِ بدعوتهم المرَّة والمرَّتين، أو في موقف عابر فحسب، بل إنَّ دعوته

الدَّلالةُ على استمراريَّة الدَّعوة وثبات النَّبيِّ ﷺ عليها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 142.

مُتواصلة ومتكرِّرة قائمة في كُلِّ حين، فلا مجال للكُفّار ادِّعاء عدم سماعها أو فهمها، وفي هذه الصّيغة أيضًا كنايةٌ عن ثبات النَّبيِّ ﷺ وصبره في أداء مهمَّته رغم المواجهة والمعاندة والمُعارضة.

بلاغةُ استعمالِ حرف الظَّرفيَّة:

تـمـامُ الإغـلاقِ في الآذان كمال الإغـــــراق في الإعراض

يحملُ حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ معاني المبالغة في تمكُّن الصَّمم وإحاطته، وذلك أنَّ الأذنَ توصف بأنَّها صمّاء، ولا توصف بأنَّ فيها صممًا إلّا على وجه المُبالغة، وهذا التَّعبير يُبرز حالة الانغلاق التّامِّ الَّتي تُبيِّن شِدَّة إعراض المشركين، ولو قيل: (على آذاننا وقْرٌ)؛ لم يكُن بتلك المُبالَغةِ؛ لأنَّ المرادَ أنَّ الأصمِخةَ قد سُدَّت، فلا يَدخُلُ فيها الهواءُ، فضْلًا عن الكلامِ[1].

بلاغةُ استعمال مفردة الوقر:

الأذنُ هـــي الطَّريق الموصل إلـى الـقـلـوب، فإذا سُدَّت؛ سُدَّ الفهم والإدراك

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردة الوقر في قوله سُبحانه: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾، والوقر معناه الصَّمم والثِّقل، من قولهم: أوقر ظهره، أي: أثقله؛ لأنَّ الوقر الَّذي هو الصَّمم مصدر، ووراء ذلك من حِدَّة الرَّفض وتأكيده ما وراءه، فلم يكتفِ المُشركون بادِّعاء أنَّ قلوبَهم مغلَّفة بالأكنَّة الَّتي تحجبها عن الفهم، بل زادوا على ذلك الإصرار في الإعراض بأنَّ الطَّريق الواصل إلى القلوب - وهو الأذن - قد أصابه الوَقر، فكانت الآذان مُصابة بصمم يعزلها تمامًا عن استقبال دعوة الحقِّ، وهذا يُبرز صورة بلاغيَّة تفوق في شِدَّتها عبارة: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾؛ لأنَّه إذا انقطع السَّمع، الَّذي هو الوسيلة الرَّئيسة لبلوغ القلوب، فإنَّ وصول الهداية يصبح مُستحيلًا، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ [لقمان: 7]، فجاء هذا العطف على وجه التَّقرير والتَّوكيد لما سبق[2].

(1) الطِّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 13/ 564.

(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 325.

بلاغةُ الاستعارة في مفردة الوقر:

تَمثيلُ إعراض المشركين عن اتِّباع الحقِّ

وردت جملة: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ مورد التَّمثيل لطغيان المشركين وفجورهم، فقد كانت حواسُّهم سليمة، ولم يكن في آذانهم صمم حقيقيٌّ، ولا على قلوبهم حُجُبٌ وأغطيَّة حسيَّة، ولكنَّهم لطغيانهم وجحودهم؛ أصبحوا لا يفهمون كلام الله، ولا يتدبَّرونه، فكأنَّ قلوبهم وأسماعهم قد طُمِسَ عليها، فهي لا تسمع، ولا تفقه، وهذه واردة بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة لاستثقال آذانهم ما يسمعونه، من جوامع البيان، وقوارع القرآن، وفيها التَّمثيل لإعراضهم عن اتِّباع الحقِّ، بمن غَطَّت الحجب والحواجز على قلبه وسمعه[1].

بلاغةُ المجازِ المرسل في مُفردة ﴿وَقۡرٞ﴾:

ذِكرُ السَّببِ بيانٌ لحالة الصَّمم المانعة من وصول الحقِّ

استعمالُ الوقرِ بمعنى الصَّمم في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ علاقته السَّببيَّة، وفيه تأكيدٌ للمعنى، فقد أُطلِقَ لفظُ السَّبب، وهو الوقر، وأريد به المُسَبَّب، وهو عدمُ السَّماع البتَّة، وهذا يوحي بأنَّ الإعراض ليس مُجرَّد غفلة أو عدم إدراك، بل هو حالة من الصَّمم مانعة من وصول كلامه إليهم[2].

نوعُ (مِنْ) ودلالتها البيانيَّة:

تقويةُ معنى الحجاب وكماله في المانعيَّة عن التَّواصل

حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا﴾ للابتداء، فهو دالٌّ على أنَّ الحِجاب مُبتدأ بينهم وبينه، فالحجاب ابتدأ من البينيَّة الَّتي كانت بين الفريقين، وهو ما يدلُّ على قوَّة الحِجاب في كونه مانعًا عن التَّواصل، وذلك لأنَّ البين بمعنى المسافة المتوسِّطة بين المتكلِّم والمخاطَب وإضافته إلى المُتكلِّم تدلُّ على إرادة الطَّرف الَّذي يلي المتكلِّم من تلك المسافة، وكذا إضافته إلى المُخاطَب تدلُّ على أنَّ المُرادَ طرفها الَّذي يليه، فلو قيل: بيننا وبينك حجاب؛ لكان المعنى

(1) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 411، والصّابوني، الإبداع البيانيّ، ص: 287.
(2) العلياني، سورة فُصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 388.

مُجرَّد حصول الحجاب في المسافة المُتوسِّطة بينهم وبينه بخلاف ما لو قيل: (من بيننا)، فإنَّه يُفهم منه أنَّ مَبْدأ الحجاب طرفه الَّذي يلي المُتكلِّم، ففيه من الدَّلالة على قوَّة الحجاب وكماله في المانعيَّة عن التَّواصل ما فيه[1]، وفيه مع تقوية معنى الحجاب بَيْنَ الطَّرفين أيضًا تَمَكُّن لازمه الَّذي هو بُعد المسافة الَّتي بَيْنَ الطَّرفين[2].

نُكتةُ ذِكر (مِنْ) في النَّظم:

آثرَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ حرف (مِنْ) في قَولِهِ تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ دون حذفها، كما في قولِه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ [الإسراء: 45]؛ للدَّلالةِ على أنَّ حِجابًا ابتدَأ مِنّا، وابتدَأ مِنكَ، فالمسافةُ المتوسِّطةُ لِجهتِنا وجِهَتِك مُستوعَبةٌ بالحِجابِ بحيث لا يبقى جزء منها فارغًا عن هذا الحجاب؛ لكونه قد سَدَّ ما بينهما، وبتَقديرِ حَذفِها يَصيرُ المَعنى: إنَّ الحِجابَ حاصِلٌ في المَسافةِ بيْنَنا وبيْنَه[3].

المسافة المتوسِّطةُ بين الطَّرفين مُستوعَبةٌ بالحِجابِ

دلالةُ العطف بين الظَّرفين:

في عطف (بينك) على ﴿بَيۡنِنَا﴾ تأكيدٌ للمُقابلة بين طرفَي الحجاب، فالحاجزُ ليس مُقتصرًا على جانب واحد فقط، بل هو حاجب يشمل كلا الطَّرفين[4].

بلاغةُ الاستعارة في مفردة الحجاب:

في قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ تصويرٌ بليغ لعُمق القطيعة بين المتكلِّمين وبين النَّبيِّ ﷺ، بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّمثيليَّة؛ إذ شبَّهوا حالهم وحال النَّبيِّ ﷺ بمَن حالَ بينه وبين

تصويرُ استغلاقِ القلوب بأسباب ماديَّة

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 66، وزاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 7/ 360.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 234.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 185، وأبو حيّان: 9/ 285، والأنصاريّ، فتح الرَّحمن، ص: 504، وأبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 3.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 235.

الآخر حجابٌ عظيم ساتر، يحجب كلَّ سبيل للتَّواصل أو التَّخاطُب، فلا تلاقي ولا ترائي، فالحجاب هُنا لا يقتصر على كونِهِ حاجزًا عاديًّا، بل هو حجاب شاملٌ يملأ المسافة بَيْنَ الطَّرفين، فلا يترك فراغًا بينهما، وهذا التَّصويرُ يُبرِز مدى استغلاق قلوبهم وابتعادهم عن النَّبيِّ ﷺ، ومُبالغتهم في النُّفور من دعوته المُباركة[1]، فأخرجوا الكلام مخرجَ الدَّلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن، وجوامع البيان، فكأنَّهم من شِدَّة الكراهية له قد صُمَّت أسماعهم عن فهمه، وقلوبهم عن علمه[2].

غرضُ تنكير لفظة ﴿حِجَابٌ﴾:

تعظيمُ الحِجاب بغرضِ استحالة التَّلاقي

صوَّر المشركون حالَهم مع رسول الله ﷺ بصورة شيئين حالَ بينهما حجابٌ عظيم وحاجز منيع، لا سبيل لأحدهما إلى الآخر، ولا مجال للوصول أو الوفاق بينهما، وجاء تنكيرُ ﴿حِجَابٌ﴾؛ ليُضفي على هذا الحاجز معنى التَّعظيم، مشيرًا إلى شدَّة المانع وقوَّته، وكأنَّ هذا الحجاب صار رمزًا للعزلة التّامَّة والانفصال المُطلق، في تأكيدٍ بليغ على استحالة التَّلاقي بينهم وبَيْنَ النَّبيِّ ﷺ ودعوته[3].

براعةُ ترتيب ذِكر القلوب فالأسماع فالأبصار:

القلبُ أصلُ القبول، والسَّمعُ أداة إيصال الوحي، والبصر أداة استبانة الدَّعوة والدّاعي

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾، جاء ترتيبُ ذِكر القلوب فالآذان فالحجاب الحائل بين الأبصار، وهي ثلاثُ استعارات تمثيليَّة؛ لبيان نبوِّ قلوب المشركين عن إدراك الحقِّ وقَبولِهِ، ومجِّ أسماعهم له، وامتناع مواصلتهم وموافقتِهم للرَّسول ﷺ، وهذه الخصوصيّات هي الَّتي دلَّت على فرط الرَّفض وفرط البغضاء وفرط العناد،

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 118، والعلياني، سورة فصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 142.
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 411.
(3) زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 7/ 361، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 25/ 304.

وأرادوا بكلِّ ذلك إقناطه ﷺ عن اتِّباعهم إيّاه حتّى لا يدعوهم إلى الصِّراط المستقيم[1]، وهذه الآية الكريمة فيها من البلاغة والمُبالغة ما لا يليق أن ينتظمَ إلّا في دُرر الكتاب العزيز، فإنَّها اشتملت على ذكر حُجُبٍ ثلاثة متوالية، كُلُّ واحدة منها كافٍ في فنِّه، فأوَّلها الحجاب الحائل الخارج، ويليه حجاب الصَّمَم، وأقصاها الحجاب الَّذي أكنَّ القلب – والعياذ بالله – فإذا كانت هذه الثَّلاثة محجوبة؛ كان ذلك أقوى ما يكون من الحجاب، فلم تدع هذه الآية حجابًا مُرتخيًا إلّا أسبلته، والهدف من التَّصوير في الآية هو إظهارُ موقف المُعرضين عن القرآن الكريم، إظهارًا حسنًا يظهر مدى ما وصلوا إليه من الإعراض والتَّعنُّت، فيا لحسرتهم عند الله[2]! فابتدأت الآية بذِكر القلوب باعتبارِها أصل الانتفاع، ثمَّ الآذان لبيان طريق إيصال الوحي، ثم البصر الَّذي هو طريق التَّمام والكمال في فهْمِ الدَّعوة واستبانة حال الدّاعي.

نوعُ الفاء ودلالتها:

الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ فصيحةٌ ترتِّب قولهم: (اعمل) على كلامهم السّابق، والمعنى: إن عرفت ما قلناه لك، ووعيته، فاعمل؛ لأنَّه لا قيمة لعملك ولا فائدة منه، ويَستوي عندنا أن تعمل، وأن تسكت، فمجيء الفاء الفصيحة، تعني: مزيدًا من التَّحدي والإصرار والسَّفه في نفي أيِّ أثرٍ لعمله[3].

ترتيبُ التَّحدي والاستفزاز على التَّكذيب والإعراض

غرضُ الأمر ومقصده الدَّلالي:

الأمرُ في قوله: ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾، أي: على دينك أو في إبطال أمرنا: ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على ديننا أو في إبطال أمرك[4]، والغرضُ اعمل على

تنوُّعُ أغراضِ الأمر بحسب السّياق الوارد فيه

(1) الصّافي، الجدول: 24/ 285.
(2) الطِّيبي، حاشية على الكشّاف: 4\185، والهرريّ، حدائق الرَّوح والريحان: 25/ 304.
(3) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 530، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 326.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 8/ 281.

دينك، ونحن على ديننا، فالمقصودُ التَّعجيز والمتاركة في الدّين، أو أن يكون مستعملًا في معنى التَّسوية، والكلام على الأوَّل مُتاركة وتقنيط عن اتِّباعه، من أجل المُبالغة في نفي أيِّ قيمة لعمله - كما زعموا - فأمروه بأن يعمل، أو ندبوه؛ لأن يعمل؛ لأنَّه يعمل في غير ما يُفيد، كما تقول لمن تعارضه: قل ما شئت، أو افعل ما شئت؛ فلن تجد أثرًا لقولك ولا لفعلك، وعلى الثّاني مُبارزة بالخلاف والتَّحدّي[1]، كما أنَّ في فعل الأمر (اعْمَلْ) تمهيدًا للإخبارِ عن عنادِهم في الإخبار عن عملهم.

نُكتةُ حذف المفعول:

بيانُ العنادِ والتَّحدي باقتراف الأعمال المطلقة

في جملة: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ حُذِف فيها مفعول فعل (اعمل) ومعمول اسم الفاعل المجموع ﴿عَٰمِلُونَ﴾، وغرضُ حذف المفعول إطلاقُ الفعل في كُلِّ ما يسمح المقام بتصوُّره مفعولًا لذلك الفعل دون النَّصِّ على اسم بعينه، فهذا الحذفُ وقع؛ ليعمَّ كُلَّ ما يمكن عملُهُ، كُلٌّ مع الآخر ما يُناسبه[2]، كأنَّه قيل: اعمل ما شئت من الأعمال، ونحن نعمل ما نشاء، ذهابًا في التَّحدي والعناد.

بلاغةُ الفصل في جملة التَّوكيد:

تعليلُ المطالبةِ بالعمل من جنس المطلوب

جاءت جملةُ التَّوكيد: ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ في مقام التَّعليل لفعل الأمر ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾، والمعنى: فاعمل على دينك ومذهبك، فإنَّنا عاملون على ديننا ومذهبنا[3]، فهذه الجملة تُبرز عِلَّة الطَّلب في سياقٍ بيانيٍّ بديع؛ إذ إنَّ النَّفسَ في مقام الأمر والنَّهي تتطلَّع دائمًا لمعرفة السَّبب والدّافع وراء ما أُمِرَت به، أو نُهيت عنه، فجاء الاستئناف تعليلًا؛ ليُلبّي هذا التَّطلُّع بدقَّة ووضوح، واستُهلَّت الجُملة بـ (إنَّ) التَّوكيديَّة

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 4، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 236، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 326.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 236.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط، ص: 420.

لتعزيز المعنى وإحكامه؛ مُراعاةً لحال النَّفس الَّتي قد تكون في موضع تساؤلٍ أو ترقُّبٍ بعد الجملة الأولى، ممّا يُضفي على الخطاب قوَّةً وتأثيرًا يتناسبان مع المقام[1].

بلاغةُ توكيدِ الخبر:

الإصـــرارُ على قـطـع الـرَّجـاء فـــي الاتِّـبـــاع وإعلان المواجهة والصُّدود

جملة: ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ تحمل أبعادًا بلاغيَّة عميقة، فقد أكَّدوا عَملهم بمؤكِّدين، هما: (إنَّ) واسميَّة الجُملة، ممّا يُبرز دلالة الثُّبوت والدَّوام، في مُقابلة التَّجدُّد والحدوث المستفاد من قولهم: ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾، وتُفصح هذه الجُملة المؤكَّدة عن احتشادهم الكامل، وعزْمِهم الرّاسخ في مواجهة دعوة النَّبيِّ ﷺ؛ إذ لم يكتفوا بمجرَّد رفضها في أنفسهم، فقطعوا ذلك الرَّجاء بالتَّأكيد بأداته، وزادوه بالنّون الثّالثة والتَّعبير بالاسميَّة، فقالوا: ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾، أي: مُعاندون، فأعلنوا عداءهم الصَّريح، واستعدادهم لمحاصرة دعوته من جميع الجهات، فجاءت هذه الجملةُ إعلانًا للمواجهة العامَّة، وصرخة تحدٍّ تُبرز بلوغهم ذروةَ الرَّفض والمحادة، من خلال حرب مفتوحة لإحباط الدَّعوة وإطفاء نورها، فهو خبر مؤكَّد مُستَعمَلٌ في التَّهديد[2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القلبُ والفؤادُ:

القـلـبُ اسـم علم على المودع فـي الـصُّـدور، والفؤاد ملحوظٌ فـيـه جـانـب التَّوقُّد

الفُؤادُ: ألطفُ ما في الجسَدِ على الإطلاقِ، ولذا يُعبَّر به عَن جميعِ البدَنِ؛ لكونِه أشرفَ ما فيهِ، كَما قال تَعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: 37]، وهو أشدُّ تألُّمًا بأدْنى أذًى يلحقُهُ، فالأفئدة توصَف بالرِّقَّة[3]، والفؤاد فيه معنى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد؛ إذ إنَّه مبعث الإرادات، وآلة الإدراك، ومُستقرُّ العلم[4].

(1) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 286، والعلوان، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2104.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 143، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 236، وأبو موسى، آل حم، ص: 327.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 433.
(4) السَّمين، الدُّر المصون: 5/ 110.

أمّا القلبُ؛ فهو الاسم العلم على هذه القطعة المودعة في الصَّدر، فلَيسَ مَدارُ الحديثِ عَنهُ في القُرآنِ الكَريمِ مِن حيثُ رِقَّتُهُ وسُرعةُ تأثُّرِهِ بما يطرَأُ عليه، بل يَرِدُ وصفُهُ بالقساوةِ وضدِّها، كما قالَ تَعالَى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر: 22]، وقال سُبحانه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر: 23].

فالقَلبُ مَوطِنُ القوَّةِ والجَلَدِ، ولذا يُعَبَّر به في المواطِنِ الدّالَّةِ على القوَّةِ والتَّعقُّلِ[1]، وأمّا الفؤاد؛ فمثل القلب، لكن يُقال له: فؤاد؛ إذا اعتُبِر فيه معنى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد[2].

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللُّغوية، ص: 106 - 112.
(2) المناوي، التَّوقيف، ص: 265.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"